حبّابة
وحكاية حبة الرمان

من كان يصدق أن تلقى حبّابة هذا المصير؟

من يصدق أن حبة رمان صغيرة تسبب كل هذه الأحزان؟

بداية القصة كانت أيام الخلافة الأموية، فإن يزيد بن عبد الملك كان مشهوراً بولعه الكبير بالغناء والطرب، حيث تميزت هذه الأيام بازدهار الفن والأدب، فكثر المغنون والمغنيات والعازفون والعازفات وأصحاب الفنون وأصبحوا من وجهاء المملكة، ندماء الملوك والأمراء، ورفقاء لأكابر الدولة، ولما تولى يزيد الخلافة سألته زوجته يوماً: هل بقي من الدنيا شيء تتمناه؟ فرد عليها قائلاً: حبّابة.

وقد كانت حبّابة في ذلك الوقت من أشهر المغنيات، هي وسلامة القس، أما سلامة فإن يزيد كان قد اشتراها بعشرين ألف دينار من قبل، وكانت حبابة قد تعلمت الغناء من سلامة وغيرها من رواد الغناء في ذلك العصر، أمثال أبي سريج وعزة الميلاء وابن محرز ومالك وجميلة، فلما اشترى يزيد سلامة، بقيت في نفسه حسرة من

أجل حبابة، فقد كان ما سمعه عن حسنها وعذب صوتها يرهف مشاعره ويثير مكامن قلبه.

ولما كانت سعدة زوجة أمير المؤمنين امرأة من طراز خاص، فإنها لما رأت تعلق الأمير بطيف حبابة، ورغبته الأكيدة في وصالها، لم تدخر وسعاً في تحقيق رغبته، لذلك أرسلت سعدة رسولاً من أخلص اتباعها، وزودته المال الوفير، وأمرته أن يذهب فيشتري حبابة، فلما جاء بها ونظرت سعدة إليها، هالها جمالها الساحر وسحنتها المضيئة، فقد كانت حبابة فتنة للناظرين. أخذت سعدة حبابة وزينتها وطيبتها، وألبستها ثوباً مطرزاً باللآلئ والسيور الذهبية، ثم أتت بها إلى مجلس يزيد وخبأتها خلف الستارة، ثم تقدمت من يزيد، وسألته مرة أخرى: يا أمير المؤمنين أبقي شيء تتمناه في الدنيا؟ فقال: ألم تسأليني عن هذا مرة فأعلمتك؟ قالت: حقاً، ثم ذهبت إلى الستارة فرفعتها وقالت: يا أمير المؤمنين هذه حبابة. ثم انسحبت وتركتها بين يديه. ومنذ اللحظة الأولى اقتحمت حبابة قلب أمير المؤمنين وتربعت فيه، عشقها يزيد وتملكته روحاً وجسداً وسلطت سلطانها على عقله وكيانه، فأصبح لا يطيق البعد عنها، ولا يرى في الحياة نعيماً إلا في القرب منها، فزاد نفوذ حبابة وأصبحت لها الكلمة العليا، حتى هددت بالخطر دولة المسلمين، فهاهو أمير المؤمنين لاهٍ عن مُلكه، زاهد عن كل شيء سوى

جاريته المحبوبة، حتى شئون الحكم تركها ونبذ مهامه السياسية وتفرغ للهوى، فلما استفحل الحال، دخل عليه أخوه مسلمة وقال له:

ــ يا أخي، ضيعت حوائج الناس، واحتجبت عنهم، أترى هذا مستقيماً لك؟

ولكن حبابة كانت أحب إليه من الجاه والسلطان، ومن الملك، ومن الناس أجمعين، بل أحب إليه من نفسه، فلم تستطع كل الوسائل أن تقلص من نفوذها عليه، كانت تأمره فيطيع، وتطلب فتتحقق في لحظة كل مطالبها مهما كانت، هي الآمرة الناهية، هي الحاكم المطلق المستبد في مملكة العشق والهيام، وهكذا غرق يزيد حتى أذنيه في بحر الغرام، وفشل الجميع في إنقاذه، وبدا كما لو كان مُلكه يسير إلى حافة الهاوية، إلى أن حدث الشيء الذي قلب الأوضاع!

في يوم من الأيام خرج الخليفة من قصره ومعه حبابة، متوجهين إلى بيت منعزل في أول الشام، كي ينعما معاً ببعض الخصوصية، وهناك أخذا يرتشفان كئوس الحب والغرام، بعيداً عن الرقباء، وينهلان من فيض المشاعر الجياشة ومتعة الارتواء، وبينما هما في أسعد حال، وأصفى بال، بين أيديهما ألذ طعام وأهنأ شراب، وبينما هما في انسجام تام وهي تغني وهو يذوب مع صوتها الأخاذ، فجأة انقلبت الدنيا رأساً على عقب، تناولت حبابة حبة رمان، فأصابتها

شرقة، وبينما كان يزيد يسارع إليها ملهوفاً ملتاعاً مرتبكاً، كانت هي قد اختنقت، وفي لحظة ماتت.

وجن جنون يزيد، حبة رمان!! حبة رمان تقتل حبيبته أمام عينيه، حبة رمان تنتزع منه أغلى ما لديه؟! كانت المصيبة أكبر من احتماله، فقد أعصابه، ظل يعانق جثة حبابة وهو غير مصدق، ظل يقبلها بشكل هيستيري، وهو يرجوها أن تنهض وتكلمه، وكأنه لم يدرك أنها بالفعل ماتت.

وجاء أهله يواسونه ويصطحبونه معهم إلى القصر، لكنه أبى أن يعود، الأغرب من ذلك: أنه لم يسمح لمخلوق بلمس جثة حبابة، ظل يزيد معها بعد موتها في نفس الغرفة التي ماتت فيها: ثلاثة أيام متوالية، ثلاثة أيام لم يكف عن معانقتها وتقبيلها والتحدث معها، والبكاء بين يديها، ويا ويل من تسول له نفسه بأن يحاول نزعها منه على اعتبار أنها ميتة! إلى هذا الحد كان يزيد يحب حبابة، وإلى هذه الدرجة انهار بعد موتها، ولكن هذا الوضع الشاذ لم يكن ليستمر، فإن مجموعة من كبراء الدولة توجهوا إليه، بعد أن علموا أن جثة حبابة كادت أن تتحلل، وهو مازال متمسكاً بها. قالوا له: إنه يعذبها وإن إكرام الميت دفنه.. الخ. فاستسلم يزيد لهم، وأمر بغسل الجثة ودفنها.